الاعتدال السلمي المجتمعي في الأندلس

أ.د.محمد عويد محمد الساير
جامعة الأنبار- كلية التربية الأساسية
م.د. ياسر فواز احمد سالم
المديرية العامة لتربية الأنبار

المستخلص

تسعى الدراسة الى بيان الاعتدال السلمي في المجتمع الاندلسي والوقوف عليه بين الحضارة والتاريخ والكشف عنه لدى طبقات المجتمع والبرهنة على أن التعايش في المجتمع الأندلسي حقيقة تاريخية إذ كانوا يتلاقون في مجالس الفكر والأدب وفي سُبل العيش في السكن والمحلات وفي تشابه المفردات الصغيرة والعادات والأثاث والطبخ ، فكانوا يقفون، أمام عدالة واحدة ، بفعل تحضر العرب في المعاملات يتشاركون الافراح واللغة والأعياد.

إن المجتمع الاندلسي بتنوعه العرقي والديني أفرز لنا طبقات متعددة بمفاهيم وأدبيات مختلفة وبيان مفهوم الاعتدال بهذا التنوع يحتاج الى بحث دقيق ، لذلك وقف الباحثان على هذه الظاهرة بالشرح والبيان بدراسة جذوره ومدى انعكاسه على الواقع الحضاري وتأثيره على الفرد والمجتمع ، مبينين الجانب الشرعي والموقف الاسلامي منه ، فجاءت الدراسة بتمهيد وثلاثة محاور: شمل التمهيد تعريف الاعتدال في اللغة والاصطلاح ، والإسلام ، والمحاور شملت أولاً : الاعتدال المجتمعي في الاندلس بين الحضارة والتاريخ ، وثانياً : الاعتدال بين فئات المجتمع الاندلسي ، والمحور الثالث : شمل الاعتدال في الادب والفكر.

الكلمات المفتاحية: الاعتدال ،الخطاب الديني، الاندلس.

Peaceful societal moderation in Andalusia

Prof. Dr. Mohamed O.Al-Sayer
University of Anbar
College of Basic Education
Dr. Yassir F. Ahmad Salem
The General Directorate of Education in Anbar
mohammed.woyid@uoanbar.edu.iq.com

Abstract

The study seeks to demonstrate the peaceful moderation in the Andalusian society and to stand on it between civilization and history and to reveal it among the classes of society and to demonstrate that coexistence in the Andalusian society is a historical fact as they met in councils of thought and literature and in ways of living in housing and shops and in the similarity of small vocabulary, habits, furniture and cooking, so they were They stand, in front of one justice, by virtue of

the Arabs being civilized in transactions, sharing joys, language and feasts.

The Andalusian society, with its ethnic and religious diversity, has produced for us multiple layers with different concepts and literature, and the statement of the concept of moderation with this diversity needs careful research, so the researchers stopped on this phenomenon with explanation and statement by studying its roots and the extent of its reflection on the civilized reality and its impact on the individual and society, showing the legal aspect and the Islamic position on it. The study came with a preface and three axes: the preface included a definition of moderation in language, convention, and Islam, and the axes included first: societal moderation in Andalusia between civilization and history, and second: moderation among the groups of Andalusian society, and the third axis: including moderation in literature and thought.

Keywords: **Moderation, religious discourse, Andalusia**

التمهيد:

الاعتدال في اللغة والاصطلاح والمفهوم الديني:

في اللغة :

عند الرجوع الى المعجم العربي نعلم أنها لم تذكر الاعتدال بهذا المفهوم ، وإنما أخرجته من الجذر (عدل) أو أنها ذكرته بمرادفات كالإستقامة والقوامة ولبيان ذلك يذكر الجوهري أنَّ العَدْلَ : نقيض "الجَوَر، يقال: عَدَلَ عليه في القضيّة" فهو عادِلٌ، "وبسط الوالي عَدْلَهُ ، وفلان من أهل المَعْدَلَةِ ، أي من أهل العَدْلِ، ورجلٌ عَدْلٌ، أي رِضاً ومَقْنَعٌ في الشهادة ، وقومٌ عَدْلٌ وعُدولٌ أيضاً" ، وهو جمع عدل ،"والعدل بالفتح ، أصله مصدر قولك: عَدَلْتُ بهذا عَدْلاً حسناً" ، "وقال الفراء: العَدْلُ بالفتح ما عادَلَ الشئ من غير جنسه"[١] والاعتدال من إستقامة الشئ فإذا اعتدل : استقام[٢]، يقال: استقام له الأمر[٣] وفي اللسان يعطينا معنى الفِداء[٤]؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: "وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ" [٥]،كما أنه "توَسط حَال بَين حَالين فِي كم أَو كَيفَ ، وكل مَا تناسب فقد اعتدل ، وكل مَا أقمته فقد عدلته ، وَعدل فلَانا بفلان: سوى بَينهمَا" [٦]، وخير القضايا اوسطها، نقول : توسط في تفكيره"أي : اعتدل ، ورأي معتدِل

مقبول: متوسط، لا تطرف فيه ، ونقول : اعتدل الشِّعرُ: اتَّزن واستقام[٧]، وكل ما يعاش به ويقوم بالحاجة الضرورية كان قواماً و إعتدالاً والعماد الذي يقوم به وينتظم[٨].

في الاصطلاح:

يجمع الجرجاني بين النحويين والفقهاء حتى يصل الى المفهوم بصورة دقيقة ليرى أخيراً أنه طرفي الإفراط والتفريط ، وقبل ذلك في مصطلح اهل النحو : عدول الاسم عن تركيبته الأصلية الى تركيبة ثانية ، وعند اهل الفقه : من يبتعد عن الكبائر، ولم تحدثه نفسه بالصغائر، وجانب نفسه خسيس الاعمال ، كعادات تناول الطعام في الطرقات ، او التبول ، كما انه الميل الى الحق من العدل والقوامة والاستقامة[٩] ، ويفيدنا الجاحظ حول الإعتدال عدداً من المفاهيم التي يخرج اليها كالتسوية بين فئات المجتمع ليس احداً افضل من الآخر ، ويطلق الاعتدال في الطول من كان مربوعاً لا طويل أو قصيراً ، وهو ما بين البخل والاسراف وتعادلت جوارحه في الاتزان، ولم يعرف من الافعال غير الاعتدال ، ومن جانب افعاله التفريط والتقصير، اذ الموزون لا يولد إلا معتدلاً، ومن كان في البشرة بين الاسود والابيض[١٠] ، يبتعد صاحب العقد أكثر فيذكر الاعتدال في الاطعمة ما لم تطغى عليه قوة، ولم يجاوز القدر ، جاء دما خالياً من الشوائب صحيحا،وصالحاً، وكل الذي شابه ذلك فهو صالٌح للأبدان كافة وفي الأوقات كافة ، صالح للأبدان المعتدلة في الأوقات أجمعها ؛ لأن ما طغى حد الاعتدال من الجسوم يحتاج من الاكل إلى الذي فيه قوة تفوق الاعتدال[١١] ، لم يبتعد التوحيدي كثيراً ليعطيه معنى التوسط بمرادفات التّعديل والتعادل والمعادلة [١٢] ، ينقل لنا الادباء آراءً لليونان بالمفهوم كالذي أورده التوحيدي من قول سقراط : بوصفه الاعتدال الحسن الحق وهو العدل لأنه على كل حسن، والحسن كل معتدل، و الجور هو القبح ، والقبيح خارج عن الاعتدال[١٣] ، ويقول أرسطو: "العدل جيد وهو علة كل جيد، وبذلك الحسن مع كل متوسط، والظلم قبيح وهو مع كل قبح" [١٤] ، فالتوسط وملازمة الاعتدال بين الأخلاق هو القانون الثابت للإنسان وإن الفلسفة هي الاعتدال وفق رأي المنفلوطي وإظهار الحقائق واضحة بين مؤتلفات الأعمال والأقوال كما يعطيه عدة مراتب فنجده منزلةً بين التهور والجبن وهي البسالة والاقبال ، وبين الشح والتبذير، وهي مكانة السخاء ، وبين الانتقام والصفح مكانة هي العقوبة، وبين التخلف والهرم مكانة هي الحكمة، وليكن أحسن ما تطور به نفسك وتتثبت عليه التوقر والهدوء عندما تنظر في الاختلاف بين متشابه الفضيلة والرذيلة[١٥] .

في المنظور الديني:

نستطيع القول ان الاعتدال يعطينا المفهوم الاخلاقي قبل ان تهتم به الشريعة السمحاء إذ أولته أهمية كبيرة فأخذ جزءاً كبيراً من الدعوة وإرساء الشرائع السماوية قبل الاسلام فلما أطلّ الاسلام برایاته جعل من الوسطية رمزاً لنشر الدين قال الله تعالى: "*وكذلك جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ*"(١٦) لما للوسطية من إقبال دون تنفير فيها الاطمئنان والاستواء والقوامة قال الله تعالى: "*وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً*" (١٧) فالتبذير، والبخل طرفان، والاعتدال، هو الاقتصاد والوسيط ، ولأن الاعتدال لابد له من رأسين، فالله عز وجل بلطفه وعفوه لم يعسر عبده إلا بمقدوره، ولم يرد به التحرج والتعنت، يقول عز وجل: "*يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْر*" (١٨) فإنّ ديننا دين السهولة واليسر لا تحرج فيه ولا تحميل للعباد فوق قدرتهم ، فلا افراط ولا تفريط بل الوسطية في كل شئ حتى في تعامل الانسان مع نفسه قال تعالى:"*فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ*" (١٩) فإيذاء النفس وظلمها، والتقدم بالاعمال الصالحات هما رأسان، والاعتدال أوسطهما ، ولهذا قال النبي "صلى الله عليه وسلم": "خير الأمور أوساطها" (٢٠)، ونهى رسول الله "صلّى الله عليه وسلّم" "عن لباس الشهرتين، فلا بد هناك من وسط مأمور به، وهو لباس أهل الصلاح، فلا يكون لباس أهل الفخر والخيلاء ولا لباس أهل الإدقاع والفقر والمسكنة"(٢١) والاعتدال مرغوب ومفضل عرفا، وشرعا، وعقلا، وأما الافراط فهو التضييع والتقتير، ولهذا قال جل شانه:"ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ"(٢٢) أى :ما أهملنا من توفيره المقتضى الاسلامي، ولا اهملناها منه، وأما الاسراف، فهو الإفراط فى الشيء وتجاوز الحد عليه ، ويبين لنا تعالى منتهى الاعتدال والاقتصاد من دون تبذير او بخل، فيعطينا صفاتها في سورة المؤمنين يقول جل وعلا:"*قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ *"* (٢٣) والقرآن يأتي على هذه الشاكلة ، وهذا منتهى الاعتدال والاستقامة ، فما جاوز الاعتدال صعوداً او دَنَا من

نزولاً ذمته الاحاديث النبوية الشريفة يقول نبينا *"صلى الله عليه وسلم"في وصف البخيل* والسخي: *"البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، قريب من النار، والسخى قريب من الله قريب من الناس، بعيد من النار"*(٢٤) إن الترادف الكثير الذي أعطاه هذا المفهوم يدلنا على سعته اللغوية وحجم المعنى الذي يمثله في التطبيق العلمي ففي احد أحاديث نبينا الكريم يعطينا الاعتدال معنى الاطمئنان وذلك عن النبي *"صلى الله عليه وسلم" في تعليم الصلاة "ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم قم حتى تعتدل قائماً"*(٢٥) تلك دعوة الشريعة السمحاء في تثبيت دعائم الحكم إنطقلت من خلال الإعتدال في الدين والمجتمع والنفس والمال وفي كل شئ فكان ولا بد من إنتشار الدين فيبلغ أثره أبعد الأصقاع.

المحور الاول : الإعتدال المجتمعي في الإندلس بين الحضارة والتاريخ .

لم تكن حياة أهل إيبيريا قبل الفتح الاسلامي متحضرة او فارهة بل كانت قريبة من البداوة، وظل المسيحيون يعانون هذه الحياة الوعرة في موطنهم، ولما تقوم عليه حياتهم من خشونة وشظف في المعيشة، فتقاسم العرب والبربر وأهل الأندلس جميعا نفس المعيشة البدائية زمن الولاة، وحلّت على بلاد الاندلس قاسية أبان حكم الأمير عبد الرحمن عام (٢٠٧هـ) وكان سبب ذلك انتشار الجراد بأرض الاندلس وأكله الغلات ونزوله بالجهات، فأصابت الناس مجاعة شديدة، كفاها الأمير بإطعام المساكين والضعفاء من ساكني قرطبة ، بعد أن فحص وجوه المواطنين حوله من كل الاعراق (٢٦) وسرعان ما دبَّ التحضر بقدوم الأمويين السلطة فسادت حياتهم استقرار وأمن ، وخططوا لذلك بخطوات متينة منذ عهد "عبد الرحمن الأوسط" (٢٣٨ هـ)، بسبب ولعه بحضارة المسلمين المادية فى بغداد مما أحاد بتجار قرطبة إلى جلب مكنوناتها ونفائسها، وأدواتها ، وكذلك اغلب امراء بني امية فهذا "الحكم ابْن هِشَام بن عبد الرَّحْمَن بن مُعَاوِيَة الربضي" "أول من اكثر الحشم والخدم وارتبط الْخيل على بَاب قصره وناوأ أعاظم الْمُلُوك فِي حياته وَبلغ من هم بخدمته خَمْسَة آلَاف ثَلَاثَة آلَاف من الفرسَان وهم الخرس لا يتكلمون سموا بذلك لعدم معرفتهم بالعربية وَكَانَ يَقُول مَا تزيَّن الْخُلَفَاء بأبهى من الْعدْل وَلَا ركبوا مثل التثبت وَلَا تحلوا بمثل الْعَفو"(٢٧) ، وحاكاه أهل الأندلس وقرطبة خاصة فى العناية بالرياش والفراش ومستلزمات التزيّن، وقام بانشاء دار للنسيج لصنع الملابس والمنسوجات الأنيقة في قرطبة ، ونشأت هناك صناعة الحلى والتحف والحقاق والأوانى وكذلك الأثاث ، وتطور المجتمع القرطبى سريعاً وأخذ يتحضر فى عيشته وحياته وكافة الجوانب

الاجتماعية في التزين والمأكل والملبس ، وفى عهد عبد الرحمن الناصر وجدناه يبني قصورا عديدة في الزهراء بجانب قرطبة على رأس جبل العروس ، موزعاً على شكل طبقات ، وكل طبقة كانت تحتوي على ما يميزها عن غيرها فالطبقة الصغرى تحوي حدائق وبساتين ، ودور للموظفين في الطبقة المتوسطة ، وفى أعلى طبقة نجد قصره المزين بأبهى التحف والرخاميات والقاعات الكبيرة بحليّها الذهبية والجواهر الكبيرة تنير وتتلألأ فى وسطها عدا الذي كان بالقاعة من مجلس معروف بمجلس المؤنس من تحفيات وتماثيل من الذهب الخالص على شكل طيور وحيوانات ، والقصر كان كبيراً اذ يمتد ثلاثة آلاف ذراع طولا ، ونحو ألف وخمسمائة ذراع عرضا ، توجد به ما يقارب أربعة آلاف من أعمدة الرخام ، والذي يريد ان يعرف حجم الثراء للحكومة الاموية ينظر الى المسج الجامع الكبير في قرطبة، ولا يزال الى يومنا هذا يمثل الروعة وفن العمارة، بالرغم الاقتطاع الذي جرى لكاتدرائية وكنيسة ، وفي كتاب الفن العربي في اسبانيا إستغرق مؤلفه وصف روعة العمارة فيه ما يقارب العشرين صحيفة [٢٨]، وبنى بن أبى عامر المنصور حاجب الخليفة المؤيد مدينة الزاهرة [٢٩]، ويطول الحديث عن حجم الثراء في عهد الامويين ولا يتضح هذا الحجم الاّ عندما نرى القدرة المعمارية الكبيرة في بناء الجامع ، والزخرفة الاسلامية المتطورة فى تزيينه وتعاهد الامويون على توسعته وعمارته والتفنن في ابداء روعته ، وقد طال مشهد الثراء القصور والمدن كما اسلفنا ، لنراه في صور الهدايا الثمينة والفاخرة التى كان يرسلها الحكام إلى أمراء المغرب مثل الهدية التي ارسلها الناصر عبد الرحمن إلى ابن أبى العافية عام (٣٢٢هـ) وما كان بها من قطع البزّ العجيب الصنعة والطرف الأنيقة من ثياب وغير ثياب وطيب وغير طيب[٣٠] اتضح لنا تطور الحضارة في الاندلس يقابلها الاعتدال المجتمعي الذي أظهره الامراء الاندلسيين اذ سادت البلاد سياسة العدل والتسامح ودانت لهم الأندلس بالطاعة [٣١] ومن مشاهد الاعتدال المجتمعي في الاندلس ما نلحظه من التقارب بين الطوائف فتمازج المسلمون والمسيحيون كثيراً ، فكانوا يتزوجون ويحتفلون فيما بينهم بحريتهم الكاملة ، ثم أنهم يتشاركون الاحتفالات المقدسة الاسلامية والمسيحية في بناء واحد ليكون مسجداً تارة وكنيسة تارة ثانية ، وقد أمن رجال الدين على أنفسهم في تلك المرحلة فكانوا يفدون بحريتهم وهم آمنون مطمئنون من كافة أنحاء أوربا الى بلاد الاندلس طالبين للعلم والمعرفة، ونجد هذا التسامح في شكاية أحد المسيحيين بعبارات تذكرنا بشكوى العبرانيين القدماء من اصطباغ اليهود الصبغة اليونانية

فيقول: "إن إخواني المسيحيين يعجبون بأشعار العرب وقصصهم ، وهم لا يدرسون كتب المسلمين وفلاسفتهم ليجادلوا فيها او يكذبوها ، بل ليتعلموا المفردات واللغة العربية الانيقة والدقيقة فهم لا يعرفون أدباً ولا علماً ولا لغة غير آداب العرب ولغتهم وعلومهم ؛ ويقبلون في شغف على تعلم الكتب العربية، ويملئون بها رفوفهم، وينفقون في سبيل تحصيلها مبالغ كبيرة، وهم أينما كانوا يتباهون بثناء العلوم العربية ومديحها" [٣٢] ويمكن لنا أن نحكم على ما كان للديانة الإسلامية من جذب للأديان سيما المسيحين من مخطوطة كتبت في عام "١٣١١م" تقدر ساكني غرناطة من المسلمين في تلك المرحلة بمائتي ألف، كلهم من المسيحين خلا خمسمئة من أبناء المسيحيين الذين دخلوا الدين الاسلامي، وفي مواطن عديدة نجد تفضيل اهل الذمة الحكم والشريعة الاسلامية على حكمهم [٣٣] ، فإذا ذكرنا الاعتدال والتسامح الذي أعطاه الإسلام اتجاه فئات المجتمع ، وهذا التقدير لضمائر الاندلسيين وعقائدهم ، والحرية التي في إقامة طقوسهم، التصريح بشرائعهم إنما جاءت بعد عهود طويلة من الغطرسة الدينة والاضطهاد الشرائعي، فمجيء الاسلام كان نوراً وفتحاً كبيراً لهم على مختلف الاصعدة، وهذه يمكن أن نسميها سياسة الفتح الاسلامي عندما صهرت الطوائف من اليهود والنصارى بمجتمع واحد مع المسلمين، ساوى بينهم في الواجبات والحقوق ولم ير بأساً من اجتماع المساجد والبيع والكنائس جنباً الى جنب ، وهنا نلمس الشعور بالاعتدال السلمي اتجاه المجتمع الاندلسي.

المحور الثاني : الإعتدال بين فئات المجتمع الأندلسي .

تنوعت الفئات المجتمعية في الاندلس من مزيج بين العرب والبربر والاوربين من اسبانيا والبرتغال فضلا عن المولدين الذين مثلوا مثولا قوياً، وكانوا قد نموا في الاندلس حتى اصبحوا مركباً مميزاً في المجتمع الاندلسي، وكان البربر والعرب ينظرون إليهم بشيء من الشك والحذر، الا أن الحكومات المتعاقبة كانت تعاملهم معاملة العرب بنفس الحقوق دون تمييز غير أنهم كانوا يجنحون إلى الخروج على الحكومة فى أحياين كثيرة ، وقد كان لهم دور كبير، في إضرام عددٍ من الثورات الخطيرة التي حصلت في قرطبة ضد الحكومة، ولكن نزوعهم صوب التمرد لم ينسهم إنتماءهم فكان لهم موقف المدافع عن وطنهم حيث اصطفوا مع المواطنين في الاندلس للتصدي من خطر وهجمات المرابطين والموحدين فيما بعد[٣٤] ، ولا زالت القومية العربية تستحوذ على اغلب قاطني الربوع الاندلسية من المدنيين في غرناطة، ومسحت المملكة بلون عروبي خاص وطابع مميز ، وعن ذلك يصف ابن الخطيب المدنيين

الغرناطيين بجمال القدود ، واعتدال ووسامة الوجوه ، وحلكة الشعر، واللون النضر، والاناقة في الملبس وجميل الطباع، وجيد الولاء والطاعة، يغلب كلامهم العربية الفصيحة مع القليل من الامالة كونهم قريبي عهد بها، وتميزت النساء بالوسامة والطول والجمال والرشاقة ، والخلال النبيلة، هذه فسيفساء الشعب الاندلسي حين أفلت شمسه وآذنت الغروب ، يوم كان مجده همم العالي وحضارة المثقف يتكون من مزيج من القوميات والطوائف عربي اوربي افريقي اسيوي اطلق عليه الغرب جملة "عرب الأندلس" أو "مسلمى الأندلس" [٣٥] ، يسودهم الاعتدال في الاعمال ، فكان شعباً فيه إستقامة دون تفريط في العادات وكانت الحضارة في الاندلس زاهرة حتى في اواخر ايامها في عصرها الاخير تتمتع بالرقي والتقدم ، أصبحت مثاراً للتقدير ومحلاً للاعجاب من الامم الغربية، وكان يفدُ إلى مدارسها العلمية طلاب اوربا من مختلف الاصقاع والاعراق، جذبهم عدل غرناطة واستقامة شعبها فكانت حاضرة السلطان، وقبّة العدل والإحسان[٣٦] ، وكان مذهب الامام مالك هو المذهب السائد لأهل السنة في الاندلس عامة وفي غرناطة خاصة، انتشر وسيطر على الفقه الاسلامي هناك منذ نهاية القرن الهجري الثاني ، فضلاً عن المذاهب الاخرى والاديان المعهودة والسائدة في الاندلس ، وعلى الرغم من سيطرة المرابطين والموحدين مدة طويلة الا أنَّ الاندلس لم تتأثر في الدين ونزعتها المذهبية ولا تقاليدها السمحة ، وهذا يدلُ على حجم الثقافة التي بها المواطن الاندلسي وكمية الاعتدال والتسامح فيما بينهم[٣٧] ، كان الاعتدال الفعال تنتشر فيه العلاقة الطيبة والسمحة بين فئات المجتمع وأديانه لاسيما تلك الوشائج بين المسلمين من جهة والنصارى من جهة ثانية، بغض النظر عن بعض التوتر في الافكار الاَّ ذلك لم يعكر صفو العلائق، ولقد تميز واشتهر حكام غرناطة بميزات متعددة على رأسها الكرم ، الا ان ما يميزهم تلك النزعة صوب الحب والتسامح والعدل والاعتدال في الحكم والموازنة بين الفئات المجتمعية ، نتج عن ذلك مودة كبيرة بين الاديان يرشدنا الى ذلك التبادل في الزيارات والافراح والمناسبات وفي التهاني والتعازي ففي السلم يجتمعون احباء وفي المفاوضات انداداً محترمين، وفي الحديث عن هذه القضية نعني التواصل: ما حدث فى عام ١٤٦٣م عندما سار ملك قشتالة هنري الرابع صوب مملكة إلى غرناطة، وفي الدخول الى اراضيها زار الملك فيها ، واجتمع الملكان فى ارض نصبت فيها الخيمة الملكية باتجاه العاصمة، وعندما انتهى الاجتماع تبادل الملكان التسامح والعهود فضلاً عن الهدايا القيمة والتي عبر كل فريق فيها عن ثقافته ، الاحترام المتبادل

نفهمه عندما امر ملك غرناطة عدداً من الخيالة مرافقة حاكم قشتالة حتى الحدود ، ولم تقتصر الزيارات على الملوك اذ نجد هذه العادة عند الفرسان من الطرفين، وكثيراً ما يقصد الفرسان من النصارى المملكة لقضاء اعمالهم وتسوية خلافاتهم ، وكذلك كانت العديد من الاسر القشتالية الرفيعة على علاقة وداد مع الملك الغرناطي وكانت اداة ومعرفة بينهم وبين الملك القشالي لتحسين العلاقات مع المسلمين، وتلجأ الى حماية ملك المسلمين احياناً عندما تشعر بظلم او حيف عليه[٣٨]، ومن كل هذه العناصر تألف المجتمع الأندلسى مشتركة فى تكوينه القارات القديمة الثلاث: أوربا وإفريقيا وآسيا، العرب والبربر والمولدون، النصارى المعاهدون واليهود ، ودخل كثير من أهل إيبيريا فى الإسلام وكانوا «مسالمة» ، وظل كثيرون على مسيحيتهم مع تصنعهم لحياة العرب والمسلمين وثقافتهم وتقاليدهم وتعلمهم للعربية والتحدث بها وسمّوا باسم المستعربين ، وأخذت تعمل عوامل فى المزج السريع بين المسلمين والمسيحيين، منها كثرة المصاهرة من الإسبانيات والعربيات ، والاختلاط المجتمعي فإمتزجت الفئات دون تقييد بفعل حكومات متحضرة ساعدت على التآلف السلمي بين فئات المجتمع في الاندلس ، عكس هذا الترابط سياسة التسامح القائمة على الاعتدال في التعامل ، فسارت الحياة سلسة لطيفة بفعل روح التسامح الدينى الذى بثّه الإسلام فى أتباعه فكان أهل الذمة من النصارى واليهود وغيرهم يعاملون بالحسنى معاملة كريمة ، فلم تشعر فئات المجتمع بتمييز ضدهم على العكس كانت الامم تنجذب صوب الاندلس [٣٩] .

المحور الثالث : الإعتدال في الأدب والفكر .

عُرف المجتمع الأندلسي بتعدد الأجناس المتساكنة فيه، من البربر، والعرب والروم، والصقالبة، والمولدين، وعلى مستوى العقائد ، والأديان ، كالإسلام، والمسيحية، واليهودية، وعلى مستوى اللغات، كالعربية واللاتنية ، والعبرية ، فضلاً عن اللهجات العامية ، تآلفت هذه العناصر فيما بينها بأمن وسلام ، وعملت الحكومات الاندلسية على احترام التعددية إذ مدَّت جسور الثقة بين الاديان والطوائف والقوميات نلمح ذلك عندما اعطت الحرية لليهود في التنظيم الداخلي ، وعين قضاة من النصارى للفصل والنظر في قضاياهم [٤٠]ترك هذا الأمر نوعا من الثقة بين العرب وغيرهم من الوافدين والسكان الاصليين ، وفي ظل الاعتدال والتسامح الديني، استطاعوا تكوين أسرهم، بتداخل الزيجات فيما بينهم نتج عنه تكوين اسر جديدة تحمل شعار الانتماء للأندلس مبتعدين عن الفوارق في الاصول، مما انتج

عنصر المولدين، والذين ساهموا في تطور المجتمع الأندلسي، على كافة الاصعدة[٤١] استطاع هؤلاء المولدون بفضل حسن سلوكهم أن ينالوا ثقة الحكام فتركت لهم الحرية بفعل الاعتدال فأصبحت عاملا فعّالاً في توجيه الناس للعلم والادب والفكر ، والأخذ بأسباب التعلم بالعربية واللاتينية والعبرية وكل اللغات المتاحة، فكان العرب يدرسون اللغة العربية كلغة اساسية فضلاً عن اللغات الاخرى ، والعكس من بقية الفئات اذ كان المسيحيون واليهود، يقبلون على دراسة اللغة العربية مع لغتهم ،وتطورت مجالس العلم و الفكر بتطور الزمن فتصدر العديد من القضاة العرب، مجالس الحكم يفصلون بالاحكام بين الناس بالعبرية والعربية ، كما إننا نجد عدداً من العلماء، يتفوق في العديد من المعارف، نذكر منهم على سبيل المثال أبا بكر الرقوطي المرسي، الذي كان "طرفا في المعرفة بالفنون القديمة، المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب، فيلسوفا طبيبا ماهرا يقرئ الأمم بألسنتهم وفنونهم التي يرغبون في تعلمها بنى له مدرسة، يُقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود"[٤٢] ، ومثل الاعتدال في تلقي العلوم إنموذجاً متحضرا عندما نجد إهتمام أهل الذمة بعلوم اللغة العربية والتميز فيها أدبا وشعرا، وبلوغهم أعلى المقامات، وتولي المناصب العليا في الدولة، كالوزارة والكتابة وغيرها ، وأصبح استخدام الكتاب منهم، والأطباء أمرا عاديا عند الأمويين ، وبلغ هذا الاعتدال أوجه عند الخليفة عبد الرحمان الناصر، الذي جمع في بلاطه وفي وقت واحد بين الطبيب العالم أبي الوليد محمد بن حسين، المعروف بابن الكتاني، والأسقف النصراني، ربيع بن زيد، والطبيب اليهودي، حسداي بن شبروط كما عرفت سفراء من اهل الذمة كحسداي الذي كان سفيراً إلى قشتالة وأوروبا[٤٣]، ومن شعراء اليهود الذين قالوا شعرا بالعربية : إلياس بن صدود اليهودي الرندي من شعراء المئة السادسة، ومن اشعاره قوله:

"لَا تخدعن فَمَا تكون مَوَدَّة مَا بَين مُشْرِكين أمرا وَاحِدًا
انْظُر إِلَى القمرين حِين تشاركا بسناهما كَانَ التلاقي فَاسِدا" [٤٤]

و أَبُو إِسْحَاق إِبْرَاهِيم بن سهل الإسرائيلي كان شاعراً كثير الهجاء يقول في احدى مهجياته :

"كَانَ محياك لَهُ بهجة حَتَّى إِذا جَاءَك ماحي الْجمال
أَصبَحت كالشمعة لما خبا فِيهَا الضياء اسود مِنْهَا الذبال" [٤٥]

ومن النصارى اشتهر ابْن المرعزي الاشبيلي المسيحي من مسيح الاندلس في إشبيلية ظهر فِي دولة ابن عباد اشتهر في مديحه للمعتمد يقول :

"لم أر ملهى لذِي اقتناص ومقنع الكاسب الْحَرِيص"
"كَمثل خطلاء ذَات جيد اغيد تبرية الْقَمِيص"
"كالقوص فِي شكلها وَلَكِن تنفذ كالسهم للقنيص"
"إِن تخذت أنفها دَلِيلا دلّ على الكامن العويص"
أَو أرسلوها وَرَاء برق لم يجد الْبَرْق من محيص (٤٦)

لم يكن أهل الذمة يدرسون اللغة العربية وآدابها، ليجدوا لهم سوقا نافذة في رحاب السلطة العربية في الأندلس فقط، بل كانوا يحصلون بها على مناصب السفارة عند ملوك الفرنجة، كالشاعر اليهودي ابن الفخار الذي ذاع صيته في طليطلة واصبح مبعوثاً من ملكهَا المسيحي الى زعماء واعيان بني عبد المؤمن "بِحَضْرَة مراكش وَكَانَ وَالِدي يصفه بالتفنن فِي الموسيقى والشّعْر وعلمه بالعلوم العتيدة والمنطق له قَوْله فِي القائد :

"حَضْرَةُ الأذفونش لابرحت غَضةً أَيامُها عُرُسُ"
"فاخلَعِ النَّعْلَينِ تَكْرِمَةً فِي ثَرَاها إِنَّها قُدُسُ" (٤٧)

قد نلمس عند بعضهم روح التحدي في إقبالهم على قول الشعر والنبوغ فيه، حتى ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، كمحاولة إِسْمَاعِيل بن يُوسُف بن نغرلة الْيَهُودِيّ وزير ابن حبوس ملك غرناطة نظم آيات من الْقُرْآن فِي أشعارٍ وموشحات يُغني بهَا يقول :

"نَقَشَتْ فِي الخَدِّ سَطْراً مِنْ كِتَابِ اللهِ مَوْزُونْ"
"لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونْ" (٤٨)

يتبين مما تقدم أن الاعتدال في الادب والفكر كان موزعاً بين الملل والنحل فلكل مجتهد نصيب من الابداع ، فبرعوا في الفنون كافة فلم يحتكر العرب المسلمون الشعر والفكر بل شجعوا الفئات الاخرى عليها ولم ينتقدوهم لملة او حزب ، وهذا يوصلنا الى كمية التسامح والاعتدال والاستقامة المجتمعية في الاندلس في الفكر والدين والادب ، ومن قبلها في المجتمع والفئات .

النتائج :

بعد البحث الدقيق حول الاعتدال السلمي في المجتمع الاندلسي تبين ما يلي :

- وجدنا ان هذا المفهوم أعمق من كونه ظاهرة اجتماعية إذ يتداخل ضمناً مع الدين والاجتماع والأدب .

- نخرج من مفهوم الاعتدال معنى الاستقامة والميل الى الحق ، وسبب لصلاح المخلوقين ، وله وضعت الموازين فتألفت بسببه القلوب .

- من أسباب النجاح ، هو القوام والاستواء المتجانبان للميل والالتواء .

- تميل النفس الى الاعتدال بالطبع ، حتى مقاطع الكلام ان كانت معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان .

- الاتزان في الشعر ، والوسطية في الدين ، وعدم التفريط في الحياة.

- تنوع الفئات المجتمعية ، وتعدد الاعراق والأديان ، كان من اسباب الرقي الاندلسي .

- بروز شعراء من المولدين اسهموا في اثراء النص الادبي في الاندلس .

- في الحقبة الاندلسية نبغ عدد كبير من اليهود والمسيح ، في الادب والفنون والطب والسياسة ، اشارة الى التعايش والاعتدال .

الاحالات:

١- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م:٥/١٧٦١-١٧٦٣.

٢- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، نشوان بن سعيد الحميرى اليمني ، المحقق: د حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د يوسف محمد عبد الله ، دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، دار الفكر (دمشق – سورية) ،ط١، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م:٧/٤٤٢٣.

٣- الصحاح:٥/٢٠١٧.

٤- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى ، دار صادر – بيروت ، ط٣، ١٤١٤ هـ: ٩/١٩٠.

٥- الانعام : ٧٠.

٦- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي ، المحقق: عدنان درويش – محمد المصري ، مؤسسة الرسالة – بيروت: ١٥٠، الجاسوس على القاموس، أحمد فارس أفندي، صاحب الجوائب ، مطبعة الجوائب – قسطنطينية ،١٢٩٩ هـ:٦٣٤.

٧- معجم اللغة العربية المعاصرة ، د أحمد مختار عبد الحميد عمر ، بمساعدة فريق عمل عالم الكتب،ط١، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م : ٢/١٤٦٧.

٨- معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة)، أحمد رضا (عضو المجمع العلمي العربي بدمشق) ،دار مكتبة الحياة – بيروت ، ١٣٧٧ – ١٣٨٠ هـ: ٦٨٥/٤.

٩- التعريفات ، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني ، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان ، ط١، ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م: ١٤٧.

١٠- ينظر كتب الجاحظ : البخلاء ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ، ط٢، ١٤١٩ هـ: ٢٢٢، الحيوان ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٢,١٤٢٤ هـ : ٢٤١/٧، الرسائل الأدبية، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، دار ومكتبة الهلال، بيروت ط٢، ١٤٢٣ هـ: ٨٠.

١١- العقد الفريد ، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١، ١٤٠٤ هـ: ٣٤/٨.

١٢- أخلاق الوزيرين = مثالب الوزيرين = أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد ، أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس ، حققه وعلق عليه: محمد بن تاويت الطنجي ، دار صادر – بيروت، بإذن: المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م:٥٠٧.

١٣- البصائر والذخائر ، أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس ، المحقق: د/ وداد القاضي ، دار صادر – بيروت ،ط١، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م:٩٦/٣.

١٤- الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب ، [ينسب لـ]عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي ، المحقق: د إلهام عبد الوهاب المفتي- كلية التربية الأساسية، قسم اللغة العربية، جامعة الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ط١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م: ١١٤.

١٥- النظرات ، مصطفى لطفي بن محمد لطفي بن محمد حسن لطفي المَنْفَلُوطي ، دار الآفاق الجديدة ، ط١ ، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م:٣٢٩/١و ٣٤٥/٢.

١٦- البقرة : ١٤٣.

١٧- الفرقان : ٦٧ .

١٨- البقرة:١٨٥.

١٩- فاطر: ٣٢ .

٢٠- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي ، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب ، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ هـ :٢٧٥/١١.

٢١- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله ، المكتبة العنصرية – بيروت ، ط١، ١٤٢٣ هـ: ١٥٧/٢-١٥٨.

٢٢- الأنعام: ٣٨.

٢٣- المؤمنون: ١-٩.

٢٤- الحديث ضعيف غير أنَّ المسلمين يأخذون به في فضائل الاعمال ، فيض القدير شرح الجامع الصغير ، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري ، المكتبة التجارية الكبرى – مصر ، ط٣:١/٤٤١.

٢٥- شرح صحيح البخارى لابن بطال و ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك و تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم و دار النشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض ، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م: ٤٠٩/٣.

٢٦- المقتبس من أنباء الأندلس ، ابن حيان القرطبي، حيان بن خلف بن حسين بن حيان الأموي بالولاء، أبو مروان ، المحقق: الدكتور محمود علي مكي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – القاهرة ، ١٣٩٠هـ:٢٢٦.

٢٧- المغرب في حلى المغرب ، أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي ، المحقق: د. شوقي ضيف ، دار المعارف – القاهرة ، ط٣، ١:١٩٥٥/٣٨.

٢٨- تاريخ الأدب العربي ، الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف – مصر ، ، ١٩٦٠ - ١٩٩٥ م:٨/٤٧.

٢٩- المقتبس: ٢٣٨ .

٣٠- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس المقري التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ) ، المحقق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري و عبد العظيم شلبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ، ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م : ٢/٢٦٥.

٣١- تاريخ ابن خلدون و عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي و المحقق: خليل شحادة ، دار الفكر، بيروت ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م: ٤/١٥٤.

٣٢- قصة الحضارة ، وِل ديورَانت = ويليام جيمس ديورَانت ، تقديم: الدكتور محيي الدّين صَابر ، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين ، دار الجيل، بيروت – لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م: ١٣/٢٩٧-٢٩٨.

٣٣- المصدر نفسه : ٢٩٩.

٣٤- الإحاطة في أخبار غرناطة ، محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب ،دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ:٤/٢٢٦.

٣٥- ينظر: المصدر نفسه : ١ / ١٣٣ – ١٣٨.

٣٦- ينظر : المصدر نفسه :١/١٤.

٣٧- ينظر : دولة الإسلام في الأندلس ، محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري، مكتبة الخانجي، القاهرة ، جـ ١، ٢، ٥/ الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م ، جـ٣، ٤/ الثانية، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م: ٥/٧٢-٧٣.

٣٨- ينظر : المصدر نفسه: ٥/٧٣.

٣٩- انظر فى المجتمع الأندلسى مواضع مختلفة من: المقتبس ، و الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، المحقق: إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس ، طبعات متعددة ، الحلة السيراء ، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، المحقق: الدكتور حسين مؤنس ، دار المعارف - القاهرة ، ط٢، ١٩٨٥م ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني ، المحقق: إحسان عباس ، دار صادر- بيروت - لبنان ص. ب ١٠ طبعات متعددة وغيرها.

٤٠- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ، دكتور إحسان عباس ، دار الثقافة - بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٩٦٠ ، ٢:٣٦.

٤١- الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصر الطوائف الثاني ، للدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش ، دار الغرب الاسلامي ، ط١، ١٩٨٨: ٢٥٠.

٤٢- ينظر : المغرب : ٢/٢٢١.

٤٣- ينظر : المغرب : ١/٣٣٦ ، انظر فى هذا الدور الحضارى لزرياب نفح الطيب : ٣/١٢٧.

٤٤- م/ن : ١/٢٦٩.

٤٥- م/ن : ١/٢٦٩.

٤٦- م/ن: ١/٢٣

٤٧- م/ن : ٢/١١٤.